مجلة المعجمية - تونس

ع 18-19

2003

الدلالة المعجمية بين المناطقة واللسانيين

علـــي القاسـمي

العقل والماهية :

ذهب الفلاسفة العـقلانيون إلى إرساء المعرفة على العـقل، ابتعاداً منهم عن الميول والأهواء، وتأسـيسـا للحقيـقة على موضـوعيـة خالصة. فـقالو إن الوجود مـؤلف من مجمـوعة موضـوعات (أشيـاء)، ولكل موضوع مـاهية أو طبيعة خاصة، وهذه الماهية هي جوهر الشيء الذي على العقل أن يكتشفه عن طريق رصد الخصـائص الذاتية لذلك الشيء، فيتكون فـي ذهن الإنسان تصور أو مفهوم له. وترتبط المعـرفة الحقيقية لديهم بمـا هو عام وكليّ، وهو المفهوم، أمـا الأشيـاء التي يتألف منهـا الوجـود فهي المادة الأوليـة التي يلاحظ العقل لمعرفة خواصها الجوهرية وتكوين مفاهيمه (سرجان : 2002، 140 - 165).

ويرتبط المفهـوم بالكليـات وهي : الجنس والنـوع والفـصل والعـرض والخاصـة. ولكل مفـهوم مضـمون وماصـدق. فالمضمـون هو جملة السـمات الجوهريـة للموضـوع أو لمجموعـة من الموضوعـات المتجـانسة التي يمثلـها هذا المفهوم. أما الماصدق فهو مجـموع الموضوعات (الأشياء أو الأفراد) التي يمثلها المفهوم. فمفهوم (الإنسان) مثـلا له مضمون أي جملة سماته الجوهرية مثل : كائن، حي، ناطق، فانٍ، الخ. وله ماصدق هو الأشـخاص الموجودون حاليا أو مستـقبلا مثـلا : زيدٌ، وبكر، وليلى، ولبنى، الخ. لتحديد جنسـه ونوعه وفصله.

الشبكات المفهومية :

ولما كـانت موضـوعات الوجـود، في الواقع، متـرابطة يتصل بـعضـها ببعـض، فإن المفـاهيم التي تعكـس هذه الموضـوعات فـي الذهن تدخل، هي الأخرى، في علاقـات بعضها ببعض، طبـقا لمدى التقارب والتـباعد بين الذي قـد يحـصل في المضـمون أو الماصـدق. وهكذا تكـون المفاهيـم متكافـئـة، أو

متقاطعة، أو شاملة ومشمولة، كما قد تكون متساوية في الرتبة أو متضادة أو متناقضة. (غيتمانوفا : 1988، 43-58).

فالفكر، إذن، هو الذي تحصل في نطاقه المفاهيم. أما اللغة فهي مجرد أصوات تعبر عن تلك المفاهيم. ونتيجة لذلك، فإننا نجد أنه على الرغم من اختلاف اللغات في مفرداتها وتراكيبها من أمة لأخرى، فإن المفاهيم التي يتعامل معها العقل هي واحدة لدى جميع الناس مهما اختلفت لغاتهم ومهما تباينت ثقافاتهم، لأنها تمثيلات لموضوعات الوجود، والوجود واحد. فاللفظ على اللسان تعبير عن المفهوم في الذهن، والمفهوم تمثيل للشيء في الوجود (Ogden &Richards : 1923, 15-21).

وهذه المقاربة الأنطولوجية، التي تبناها المناطقة الصوريون، قائمة على تصور فلسفي معين يفترض وحدة الفكر الإنساني بسبب وحدة الوجود، على اقتراض أن هذا الوجود يبدو واحدا لجميع الناس مهما اختلفت ذواتهم، لأن الموضوعات في الوجود مستقلة عن ذوات الناس. فالأشياء هي العناصر الثابتة المشتركة التي تشكّل تصورات الناس الذهنية المتماثلة، فتكون الدلالة واحدة لدى جميع الناس، والمعرفة موضوعية وليست ذاتية.

اعتراضات على المقاربة العقلانية للدلالة :

غير أن بعض الباحثين، يدّعون أن هذه المقاربة كانت ستقنعنا لو كان الوجود مكونًا فقط من أشياء حسيّة ملموسة ذات خصائص جوهرية وعرضية يمكن للإنسان رصدها بسهولة ووضوح. ولكن الإنسان لا يتعامل مع الموضوعات الحسية حوله فحسب، وإنما يتعامل كذلك مع الموضوعات المعنوية والقضايا المجردة والعواطف والأحاسيس والانفعالات، كما يتعامل مع العلاقات القائمة بين الذوات والموضوعات. وبعبارة أخرى، إن اللغة ليست موضوعية خالصة فحسب بل هي ذاتية كذلك، وإن دلالتها تكمن في استعمالها من قبل المرسل والمتلقي والسياق والمقام.

ومن ناحية أخرى، يذهب هؤلاء الباحثون إلى أن الإنسان قد يتمثل حقيقة الأشياء ويتصورها بشكل صحيح إذا تمكّن من رصد خصائصها الجوهرية والعرضية وإدراك العلاقات بينها موضوعا ومحمولا. أما إذا تعرّض الإنسان للخطأ بسبب ما يطرأ على حواسه من إرهاق وتعب ومرض أو يخالط فكره من تحزّب وتعصب، فإنه قد لا يدرك حقيقة الأشياء كما هي.

ومن ناحية ثالثة، فإن المفاهيم في ذهن الإنسان قد لا تبقى صورة مجردة صافية لجوهر الأشياء في الوجود، إنما قد تتلون وتتشكل بالموروث الثقافي للفرد وبما تضفيه الأسماء عليها من إيحاءات هامشية اكتسبتها بالاستعمال المتعارف عليه في الجماعة الناطقة. ولهذا فإن للغة قوة تضاهي قوة الأشياء في الوجود.

بعض الدلالة يكمن في اللغة ذاتها :

وسواء أكانت مقاربة المفاهيم صائبة كليا أم جزئيا، فإننا نرى أن الدلالة لا تكمن كلها في المفاهيم التي تمثل الموجودات في الذهن إنما كذلك في بنية اللغة ذاتها بالإضافة إلى الخلفية الثقافية والمعرفية للمرسل والمتلقي وإلى موضوع عملية الاتصال وعوائقه. وسنحصر مداخلتنا هذه على العناصر اللغوية للدلالة ، فنقول إن دلالة اللفظ باللغة العربية تُستقى جزئيا من اللفظ ذاته.

فالكلمة باللغة العربية، كما نرى، تكتسب معناها، أولا وقبل كل شيء، من الخصائص الصرفية والدلالية للغة العربية ذاتها. فهذه اللغة تتيح لنا ثلاث أدوات مُعينة على استيعاب معنى اللفظ، هي : 1- المعنى الأصلي للجذر (م أ) 2- المعنى العام للأسرة اللفظية (م ع) 3- معنى الوزن الصرفي للفظ (م ص) . وبعبارة أخرى فإن معنى اللفظ يتألف من المجموع الدلالي، لا الحسابي، للمعاني الثلاثة المذكورة. أي :

م ل = م أ + م ع + م ص

وتتناول المداخلة هذه المقاربة الدلالية بالبحث والتحليل والتمثيل.

المعنى الأصلي للجذر :

إن كل جذر، ثنائيا كان أو ثلاثيا أو رباعيا، يحمل معنى أصليا عاما وأحيانا أكثر من معنى أصلي عام واحد، وأقترح أن تسمى هذه الظاهرة بالاشتراك الجذري تمييزا لها عن ظاهرة الاشتراك اللفظي، إن لم تكن سميت بهذا الاسم من قبل. ويتجلى المعنى الأصلي للجذر في جميع الألفاظ المشتقة من ذلك الجذر. وإضافة إلى ذلك، فإن كل لفظ من تلك الألفاظ له معنى خاص به. وعلاوة على ذلك، فإن كل لفظ يصاغ على وزن معين من أوزان الصرف العربي، والوزن ذاته يحمل معنى خاصا به. وهكذا يتكون معنى اللفظ من حاصل الجمع الدلالي، لا الحسابي، للمعاني الثلاثة.

ولنضرب مثلا على تجليات المعنى الأصلي للجذر في مشتقاته بالجذر (ع ب ر). فالمعنى الأصلي لهذا الجذر يفيد (الاجتياز أو الانتقال من مكان لآخر). ونجد هذا المعنى الأصلي في الألفاظ المشتقة من ذلك الجذر مثل :

- عبور : الانتقال من ناحية إلى أخرى مثل عبور النهر أو الجسر، الخ.
- عبرة : الدمعة التي تنتقل من العين إلى الخد (أما إذا ترقرقت الدمعة في العين ولم تجتزها فهي ليست بعبرة).
- عبير : الرائحة التي تفوح فتنتقل من مصدرها إلى المتلقي.
- تعبير : الفكرة التي تنتقل من ذهن المتكلم إلى لسانه وتخرج على شكل كلام.
- عبرة : الخبرة أو الاعتبار الذي ينتقل من تجربة فرد إلى فرد آخر.

فالمعنى الأصلي للجذر (ع ب ر) وهو الانتقال أو الاجتيار يتجلى في الألفاظ المذكورة أعلاه. ولنضرب مثلا آخر من الجذر (ج ن ن). ومعناه الأصلي هو (الستر أو الخفاء) الذي يظهر في الألفاظ المشتقة من ذلك الجذر مثل :

- جنين : كائن مستور أو مخفي في بطن أمه (أما إذا وضعته أمه وأصبح ظاهرا فلا يسمى جنينا بل وليدا أو رضيعا أو طفلا أو ما إلى ذلك).
- جنينة : حديقة مخفية أو مستورة خلف الدار أو في وسطها (أما إذا كانت في شوارع المدينة فلا تسمى جنينة بل حديقة).
- جنّ : كائن مستور أو مخفي عن أنظارنا.
- جنون : مرض مستور أو يخفي عقل الرجل.
- جنّة : مكان زاهر رائع مستور أو مخفي في العالم الآخر.

يمكن أن نعدّ نظرية المعنى الأصلي للجذر نظرية متينة لها تطبيقات واسعة في المعجم العربي. وإلى جانب هذه النظرية، شاعت نظرية أخرى يمكن نعتها بالركيكة لقلة تطبيقها، وصعوبة تسويغها، تلك هي نظرية الاشتقاق الأكبر التي تزعم أن تقليبات الجذر الواحد المختلفة تشترك في معنى أساسي عام. فالجذر الذي ذكرناه آنفا (ع ب ر) له ستة تقليبات إذا أخذنا كل حرف من الحروف وأتبعناه بالحرفين الآخرين، مرة متبوعا بالحرف الثاني ومرة متبوعا بالحرف الثالث. وهذه التقليبات هي : ع ب ر ، ع ر ب، ب ع ر، ب ر ع، ر ع ب.

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من استعمل تقليبات الجذر في صناعة المعجم العربي. وكانت غايته حصر جميع الألفاظ المستعملة والمهملة في اللغة العربية، والتأكد من شمولية معجمه (العين)، إذ يقول في مقدمة معجمه : « هذا ما ألفه الخليل بن أحمد البصري من حروف : أ ب ت ث، مع ما تكمّلت به فكان مدارَ كلام العرب وألفاظَهم، فلا يخرج منها عنه شيء». (الخليل بن أحمد، مقدمة العين).

ويرى الأستاذ هيوود أن الخليل بن أحمد لم يروج لنظرية المعنى الأساسي المشترك لتقليبات الجذر الواحد، ولكن طريقة التقليبات التي اتبعها في ترتيب مادة معجمه (العين) ربما أعطت الانطباع للغويين والمعجميين في عصور تالية بأن تقليبات الجذر الواحد مرتبطة دلاليا كما هي مرتبطة صوتيا، أو حتى الاعتقاد «بوجود بعض السحر في تشكيلات الحروف» (: Haywood 1965, 39).

وفي حقيقة الأمر، فإن صاحب هذه النظرية هو اللغوي الكبير أبو الفتح ابن جني (المتوفى عام 1002 م)، الذي عزاها لنفسه وأطلق عليها اسم الاشتقاق الكبير في مقابل الاشتقاق الصغير الذي يقتصر على اشتقاق الألفاظ من جذر واحد من دون تقليباته. وكان المثال الذي ضربه ابن جني على نظرية الاشتقاق الكبير معنى الجذر (ق و ل) في تقليباته الستة : ق و ل، ق ل و، وق ل، ول ق، ل ق و، ل و ق (ابن جني : 1950-1952، ج 1، ص ص 5-11، وكذلك ج 2، ص ص 133-139).

وإذا كانت نظرية المعنى الأساسي المشترك لتقليبات الجذر الواحد (أو نظرية الاشتقاق الأكبر، كما يسميها ابن جني) لم تلق صدى كبيرا في مصنفات المعجميين العرب، فإن نظرية المعنى الأصلي للجذر حققت نجاحا باهرا، ووجدت لها تطبيقات عملية في عدد من المعاجم في طليعتها المعجم القيم الموسوم ب (المقاييس) الذي صنفه ابن فارس. فكل مدخل في هذا المعجم يبدأ بالمعنى الأصلي للجذر، قبل أن تسرد الكلمات المشتقة منه ومعانيها. ولنضرب مثلا على ذلك بالمدخلين (ب س ط) و (ب ر أ) في معجم (المقاييس) :

«(ب س ط) : الباء والسين والطاء أصل واحد، وهو امتداد الشيء في عُرض أو غير عرض. فالبساط ما يبسط. والبساط الأرض وهي البسيطة. يقال مكان بسيط وبساط. قال :

ودون يد الحجاج من أن تنالني بساط لأيدي الناعجات عريض

ويد فلان بسط إذا كان منافقا. والبسطة في كل شيء السعة. وهو بسيط الجسم والباع والعلم. قال الله تعالى : (وزاده بسطة في العلم والجسم) (ابن فارس : 1991، ج 1، ص 247).

أما مدخل (ب ر أ) فنجد فيه :

«(ب ر أ). : الباء والراء والهمزة فأصلان إليهما ترجع فروع الباب : أحدهما، الخلق، يقال : برأ الله الخلق يبرؤهم برءا. والبارئ الله جل ثناؤه. . .

والأصل الآخر : التباعد من الشيء ومزايلته، من ذلك البرء، وهو السلامة من السقم، يقال برئت وبرأت. . . من المرض. ومن ذلك برأت إليك من حقك. . . أنا بريء منك . . . » (ابن فارس : ج 1، 230-237).

وتجدر الملاحظة إن إعطاء المعنى الأصلي للجذر قبل التطرق إلى معاني مشتقاته وسيلة مُعينة على التذكر، في زمن كانت فيه المعاجم تحفظ عن ظهر قلب من قبل الدارسين والمتخصصين، ولم تُقتن لتوضع على الرف للرجوع إليها عند الحاجة فقط.

الأسرة اللفظية والأوزان الصرفية :

إن خاصية الاشتقاق، التي تمتاز بها العربية، تزود المعجمي بأداة فعالة في تيسير إمداد القارئ بالمعلومات الدلالية. فكل مفردة في الأسرة اللفظية تصاغ وفق وزن صرفي له معنى معلوم شعوريا أو لا شعوريا لدى الناطقين باللغة العربية. وفيما يلي أمثلة على معاني بعض الأوزان الصرفية :

الـــــوزن	المعنـــــى	المثـال
فعل	فعل تام (أو حدث بالماضي)	كتب
فاعل	الذي قام بالفعل (مفرد، مذكر)	كاتب
مفعول	الذي وقع عليه الفعل (مفرد، مذكر)	مكتوب
مَفعل	المكان الذي يقع فيه الفعل (مفرد، مذكر)	مكتب

وبهذا، إذا عرف المعجمي الفعل الماضي تعريفا كاملا، فإنه لم يعد بحاجة إلى تعريف بقية مفردات الأسرة اللفظية. وإنما يستطيع أن يدرج تلك المفردات في المدخل دون تعريف، بل بإمكانه أن يغفلها تماما. وعندما يدرج المعجمي تلك المفردات دون تعريف، فإنه لا يجد نفسه مضطرا الى ذكر وزنها الصرفي، فالناطقون بالعربية يحسونه ويعرفون معناه بالسليقة وإن لم يستطيعوا تسميته وشرح القاعدة التي تحكمه.

إن مفردات الأسرة اللفظية تشترك في معنى عام واحد يخصص في كل مفردة طبقا لمعنى وزنها الصرفي.

وتجدر الإشارة إلى أن المعنى العام للأسرة اللفظية ليس مطابقا تماما للمعنى الأصلي للجذر، الذي سبق الحديث عنه. فالمعنى الأخير يمكن أن تقتسمه أكثر من أسرة لفظية واحدة، كما أن الجذر يمكن أن يكون له أكثر من معنى أصلي واحد. إن المعنى العام للأسرة اللفظية يظهر في مفرداتها بصورة أقوى وأوضح من تجلي المعنى الأصلي للجذر في الأسر اللفظية المشتقة منه. ولنضرب مثلا للفرق بين المعنى الأصلي للجذر، والمعنى العام للأسرة اللفظية، والمعنى الوزني (أو الصرفي) للمفردة أو اللفظ، بكلمة (اعتبر) :

المعنى الأصلي للجذر : الاجتياز أو الانتقال من شخص إلى آخر.

المعنى العام للأسرة اللفظية : الاتعاظ

المعنى الصرفي للفظ : فعل ماض لشخص ثالث مفرد مذكر.

ويكون معنى الكلمة (اعتبر) حاصل الجمع الدلالي للمعاني الثلاثة المدرجة أعلاه، كما ذكرنا. ويمكن تمثيل العلاقات الدلالية المتشابكة بالمخطط التالي :

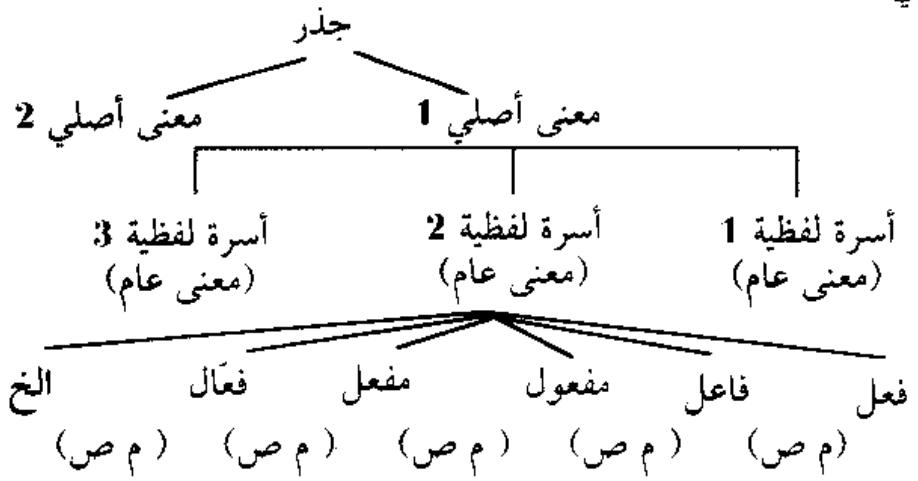

لقد كان المعجميون الرواد يدركون تماما الخاصية الاشتقاقية للغة العربية وفائدة المعنى الأصلي للجذر، والمعنى الأساسي العام للأسرة اللفظية، والمعنى الصرفي للفظ بوصفها أدوات هامة في تزويد مستعمل المعجم بالمعلومات الدلالية الناجعة. ولهذا فقد استغلوا هذه الأدوات استغلالا مكثفا في معجماتهم. وهذا ما يفسر لنا السبب في عدم ذكرهم جميع مفردات الأسرة اللفظية في مداخل تلك المعاجم.

اختيار كلمات المداخل :

على الرغم من أن ثقافة المعجميين العرب الرواد تضم معرفة نظرية معمقة في فقه اللغة والمنطق، فإنهم فضّلوا مقاربات عملية لتصنيف معاجمهم. ولكي يستفيدوا من الأدوات الدلالية المُعينة التي ذكرنا آنفا، وخاصة المعنى العام للأسرة اللفظية، كان عليهم أن يبدأوا مداخلهم في المعجم بالمفردة الأكثر شيوعا وشهرة من بين مفردات الأسرة اللفظية الواحدة. فإذا كان القارئ يعرف معناها سهل عليه معرفة معاني بقية مفردات تلك الأسرة اللفظية، لأنها تشترك جميعا في معنى أساسي عام واحد. ولهذا نجد أن أحد مداخل المعجم يبدأ بالفعل، في حين يبدأ المدخل الذي يليه باسم الفاعل، ويبدأ مدخل ثالث بإسم المفعول، ومدخل رابع بالنعت، وهكذا بحيث لا يوجد تساوق أو نظام محدد في اختيار كلمة المدخل، أو في ترتيب مفردات الأسرة اللفظية الواحدة. ومن الأمثلة على ذلك ما نقتطفه من بعض مداخل معجم (تاج العروس) للزبيدي :

س و أ

- «(ساءَه) يسوءُه سُوءًا وسَواءً. . . فعل به ما يكره. نقيض سرَّه. . .
- (السُّوء) : كل آفة ومرض، أي اسم جامع للآفات والأمراض . .

ش ط أ

- (الشطء) : فراخ النخل والزرع، أو هو ورقه (أي الزرع). . . وفي التنزيل (كزرع أخرج شطأه)
- (أشطأ) الشجر بغصونه : أخرجها . . .
- (أشطأ) الرجلُ : بلغ ولَدُه مبلغ الرجال فصار مثله . . . .

ر ق ب

- «(الرقيب) هو اللّه، وهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، فعيل بمعنى فاعل. . .

· (رقبه) يرقبه . . . رقابةً : رصده وانتظره . . .»

وقد أخذ بعض الباحثين المعاصرين على المعاجم العربية التراثية عدم التزامها بترتيب محدد في عرض مفردات الأسرة اللفظية في المدخل الواحد، وعدّوا ذلك عيبا من عيوب المعجمية العربية. غير أنه من الممكن النظر إلى ذلك بوصفه طريقة ذكية لمساعدة القارئ في فهم معاني مفردات المدخل، طبقا لمبدأ الانتقال من المعلوم إلى المجهول، وهو من المبادئ التي تأخذ بها الطرائق التعليمية الحديثة.

علي القاسمي
مكتب تنسيق التعريب - الرباط

المراجـــع

ابن جني (1952-1956) : الخصائص. دار الكتب المصرية، القاهرة.

سرجان، المحجوب (2002) : أسس المعالجة الحاسوبية للدلالة اللسانية، رسالة دكتوراه في جامعة المولى إسماعيل بمكناس، المغرب.

غيتمانوفا، الكسندرا (1986) : علم المنطق، موسكو : دار التقدم

ابن فارس (1991) : معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل.

Haywocd, John (1965) : Arabic Lexicography. E. J. Brill, Leiden.

Ogden, C.K. and Richards, I.A. (1923) : The Meaning of Meaning. New York, Harcourt, Brace &World, Inc.

ملاحظة : سبق أن نشر جزء من هذه المداخلة. والمقصود من تقديمه في هذه الندوة هو تعميق النقاش حول النظرة الجديدة عن دلالة اللفظ.